ـ متى، منذ أيام الحريق؟!

وأشرت إلى المكان.

التفت الرجل نحو المكان حيث يدي، وتطلّع إليه ثمّ نظر بوجهي وعاد إلى جيبه يعيد لي النقود وهو يتفرّس بوجهي ثمّ قال:

ـ من أنت؟!

قلت:

ـ ألا تعرفني، أنا لطفي حسن.

تسمّر الرجل في مكانه وهمهم مع نفسه: من أنت... ها.. لطفي حسن تقول، يا سبحان الله كم تتشابه الأسماء!

قلت:

ـ أجل تتشابه الأسماء وحتى الأفعال والأذواق.

بدا بائع السجائر صامتاً محدّقاً بي. تركته ومضيت نحو سلالم النفق الأرضيّ تماماً حيث كان المقهى الذي كنّا نقتعد كراسيه أنا وصديقي. وقبل أن أنزل إلى الأسفل ألقيت نظرة مترامية حيث الأشجار والمقهى والدكاكين فبان كل شيء. وتصاعدت أشياء أهمّها تلك الأصوات المنبعثة إلى وجود كل سامع وهي مزيج من صوت الآلة والإنسان وصوت المكان نفسه بنبراته وضحكاته وبروائح صيفه وطيب نسيمه وبحرارة الأرض المرشوشة بالماء وبعنف الرغبات في الصدور وبالانطواء على شتّى الأمنيات. وكنت أتحدّث وأضحك وكان صوت صديقي لطفي حسن يتمثّل قربي بفرحه وتعاسته ونبراته الأليفة الودودة. لكأنّه ذلك الإيقاع الموسيقي الرتيب والمشوّش الصادر عن مسرح الملهى الذي تضيء واجهته المكان.

**بغداد**

---

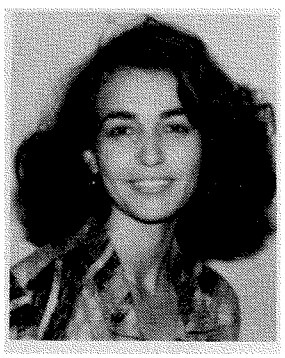

# همسة لا مبالية

## إراحة الجبوري

حضرتُ إلى هنا من أجلها.

بل هذه هي نصف الحقيقة. لقد جئتُ إلى هنا من أجلي. نعم، من أجلي أنا، غير أنّي لم أستطع رؤيةَ المكان من دون كلماتها. لقد كانت كلماتُها هي الصّورة، وعبثاً أحاول إثباتَ عكس ذلك. حتّى الوقت كانت هي من اختاره، لا أنا كما أدّعي الآن.

وحدها يحقّ لها الحديث واختصار كلّ شيء بإطراقة قصيرة.. إطراقة تختفي خلفها حديقةٌ صغيرة تتعلّق فوقها شمسٌ تخترق أشعّتُها الغيومَ البيض بخجل وتنام على أراجيح الأطفال المهجورة الصّدئة.. إطراقة يختفي خلفها الصمتُ الذي حلّق فراشاتٍ زاهيةَ الألوان على خيوط الشّمس الملتفّة حول زهرة وحيدة، بينما يقف القمر شاحباً بين أمواج الغيوم الرّقيقة.

«لم يكن الصّمت هو العدم ولا الغياب خارج الزّمن، إنّه الامتلاء الأبيض الثلجي الذي يسبح في داخلنا ويجعلنا نحسّ بقرب نهاية العالم. كان الصّمت بمثابة إعادة توازن لخطواتنا السّائرة نحو شاطئ الأبديّة.. نحو تلك الأغنية. ستفهمين معانيها حالما تدركين أسرار الألم وطعم الحزن».

متى قالت لي هذا؟ أتراني أتذكّر أم أحلم؟ لكنّه بالتّأكيد كان في سنة تأخّر فيها هطول المطر. حتّى الذين لا يهمّهم هطوله أو يكرهون هطوله تساءلوا عن سرّ غيابه. انتظار المطر كان شغلَ المدينةِ الشّاغل.

يومها باغَتَنا المطرُ وهطل بعد أن يئس الجميع منه. كنت أسير تحت المطر بانتظاره. سارت إلى جانبي وكأنّها لا تشعر بما يحيط بها من ناس. لم يكونوا أكثر من أشياء عابرة لم تدخل حياتها. لم أرها أوّل مرّة لكنّي سمعت من يقول «حضر المطر ولا من أحد يستقبله.. يحدّق في الوجوه فلا يتعرّف إليه سوى الأطفال الذين يثير دهشتَهم كلُّ شيء والشّيوخِ الذين امتهنوا الانتظار».

قالت هذا من دون أن تنتظر إجابة، لكنّي سألتها:

ـ وماذا عنّا؟ أقصد..

ـ أنت عاشقة.

ـ وأنت؟

ـ عاشقة وهرمة.

تأمّلتُها. كانت هرمة حقّاً. ترتدي ملابس قديمة كانت تمثّل قمّة الموضة في يوم من الأيّام. كنت أرى هذه الأزياء في مجلّات الموضة التي تخصّ والدتي. فكّرتُ حينها أنّني قد أرتدي مثل هذه الملابس بعد ثلاثين سنة وفقاً لمقاييس الموضة!

«ستجدين قطّتك الصّغيرة التي لم تر المطر من قبل تختبئ خائفة». قالت هذا، وبسمة صغيرة تنفلت من بقايا فرح طفولي منكسر، أخفقت في الوصول إلى شفتيها الصّارمتين فمات الفرحُ على وجنتيها المتهدّلتين.

قلتُ لها: كيف عرفت أنّ لي قطّة صغيرة؟

توقّفتْ مدّعية التساؤل، غير أنّي كنت أحاول الاستعداد لما تقوله.

ـ لا تذهبي إليه. أرجوك، لا تذهبي إليه. لابدّ أن توقفي هذا العذاب. أتعبني انتظارُه. ينبغي إنقاذكما.. إنقاذه هو بالذّات.

ـ من أيّ شيء؟

ـ من نفسيكما.

كنت أتبادل الحديث معها بلا امتعاض أو غضب. سألتها:

ـ من أنتِ؟

ـ أنا؟.. أنا حلم من أحلامك.

ـ لا، ليس حلماً. أنتِ لست حلماً. أتذكّر حديثنا هذا حرفاً حرفاً. أعرفه جيّداً. قلتِ لي حينها إنّني عثرت عليك في الحلم وأجبتك أنّ هذا الحوار قد جرى بيننا من قبل.

ـ لكن..

ـ لا تكملي.. ستقولين لكن هذا ما جرى فعلاً وأنّنا لم نلتق من قبل.

ـ أنْ نُوجِّه الحديث بهذه الطريقة أمر سهل وصعب في الوقت ذاته.

ـ سأجيبك «نعم»، ولكن ليس إلى حدّ التفاصيل ذاتها. عندها تشيحين بوجهك متبرّمة وتتوجّهين إلى تلك المكتبة.

ـ وماذا بعد؟

ـ بسؤالك هذا تحاولين أن تؤجّلي برهة ما ستقومين به.. ستتلقّفين ذلك الكتاب في زاوية المكتبة وتقولين كيف عرفت أنّني أبحث عن هذه النسخة الوحيدة الموجودة في المكتبات.

ـ وتقولين إنّ اسم المؤلّفة الأوّل يشبه اسمي.

ـ ثمّ تشعرين باليأس وتقولين أريد أن أوقف تكرار ما يحدث من سنوات. أتعبني هذا التكرار.. تكرار هذا العذاب.

ـ لقد تعبت. كانت الحرب هي البداية. لكن دورنا لم يتوقّف بانتهاء كلّ شيء. مازلنا معلّقين بنقطة نخشى مغادرتها ويعذّبنا البقاء فيها.

ـ أنا تعبت أيضاً من تكرار هذا. أرجوك أوقفيه وقولي لي ما يحدث.

ـ لقد كانت الحرب.

ـ أيّة حرب؟

ـ حيث التقينا وأنت تسيرين في كلّ مكان مردّدة «أبحث عنه لكنّي لا أرى سوى ابتسامته المشمسة وهي تسأل: هل تتذكّرين؟».

ـ هذا يعني أنّنا لم نلتق من قبل!! وهل التقينا؟

ـ لكنّها الحرب.

ـ الحرب!!

ـ إذا كنت تحلمين بي الآن فأنا أتذكّرك. عودي إلى كتابك.

ـ كتابي؟

ـ لا شيء.. لا شيء. إنّك لا تعرفين هذا بالتّأكيد. إنّه كتابك الأوّل وفيه تفاصيل عنه وعنّي.. عن لقاءاتنا.

ـ صحيح أنّي أكتب له أحياناً بعض القصائد، لكنّي لم أؤلّف كتاباً بعد. ثمّ عن أيّة حرب تتحدّثين؟

ـ الحرب التي جمعتنا أوّل مرّة.

ـ لكنّها ليست حقيقة. كان ذلك أحد كوابيسي. أتذكّر أنّني صحوتُ مرتعبة وحدّثته عن الكابوس.

ـ وأخبرك أنّه رأى الكابوس ذاته لكنّه لم يرَ المرأةَ وإنّما أحسّ بوجودها.. بصرختها المحذّرة.

ـ هذا ما حدث بالضّبط.

ـ كنت أحاول إنقاذكما.. إنقاذ ابتسامته المشمسة من الذّبول. شعرت بالعجز من أن أوقف تلك اللّحظة التي جمعت مصيريكما إلى الأبد.

ـ كيف يمكن إنقاذنا بهذه الطّريقة؟ وجودنا معاً هو الإنقاذ.

ـ وجودكما معاً قوّةٌ من شأنها تدميركما. منطق لا يمكن لكِ الآن فهمه. أقوله هذه اللّحظة لأنّي أحاول استباق الأحداث. أتساءل هل كان يمكن أن يحدث خلاف ما حدث لو توقّفتما الآن!؟

ـ لا أفهم ما تقولين، لكنّي حلمتُ بكِ مرّة وأنت تمسكين بيدي صارخة «أنقذيه.. أنقذي نفسك واتركيه». يومها أخبرته بما رأيت. كنت أحاول أن أواسيه لكنّه كان مرهقاً للدرجة التي أرعبته فيها نظراتي وكأنّه يدرك الفاجعة أوّل مرّة منذ عرفته. كان يلفّه نوع من الشّعور باللاّمبالاة الخارجيّة لكنّه ملغوم بالمأساة.

ـ لامبالية!!

فتحت حقيبتها وأخرجت قلماً أبيض. قالت «انظري إلى هذا القلم».

ـ إنّه القلم الذي أهداني إيّاه لكنّه أضاعه العام الماضي.

ـ اقرئي ماذا حفر على حافته بعد عثوره عليه: «لا يمكن أي يرمّم الزّمنُ همسة لامبالية لصديق حقيقي».

ـ والحرب؟

كانت تتلمّس حروفَ القلم بعاطفة حتّى بدت وكأنّها تبكي وهي تقول:

ـ ينبغي أن تنقذيه. اتركيه قبل فوات الأوان.

ـ قبل فوات الأوان!!

ـ نعم، قبل فوات الأوان. وجودُكِ قربه يجعله عاجزاً عن اتخاذ أيّ قرار إزاء ما يحدث.. يجعلكما تتمسّكان بالحياة.

ـ أو بالموت!!

ـ لا فرق، لكنّ لحظات عجزكما تلك تجعلكما تتوقان للوحدة والرّغبة في إنهاء كلّ شيء مثلما تتوقان إلى العودة إلى متعكما الصّغيرة التي لم تعد تستوعب سعادتكما.. تجعل ما عشتماه ماضياً لا شيئاً يحدث لكما في كلّ زمان ومكان.

* * *

عندما اختفيا خلف ذلك التلّ، كنت قد وصلتُ إلى أبعد نقطة منظورة. كان الصّمت أقوى منّي.. أقوى من الخوف الذي لم يكن واضحاً وأنا أراقب رجلاً وامرأة يسيران بشرود.. بخطوات وئيدة. ابتعدتُ بأقصى سرعتي، لكنّهما لم يختفيا كما كنت آمل. كانت عيناي متعلّقتيْن بهما. لم أسمع سوى صوت لهاثي المدوّي. كان هدوء المكان يضجّ بالأصوات المختنقة.. لهاث مفرغ من الهواء طغى على كلّ شيء؛ لم يتبقَّ منه سوى نظراتهما التي كانا يوجّهانها الواحد منهما إلى الآخر في زحمة شرودهما.. نظرات لا تريد التعاطف أو المواساة.. نظرات تبغي ذلك الحبّ الذي يتعدّى أيّ فهم.. الحبّ الموبوء بالكبرياء. نظرتُ إليه فوجدت حُزْنَه ينبعث برقّة وشفافيّةٍ «حجر النجمة» التي وضعها حِلْيةً على معصمي.

* * *

توقّف المطرُ فأشارتْ إلى سيّارة أجرة. لم تقلْ لي وجهتنا. نزلنا في شارع مزدحم. كانت تسير بسرعة لا تتناسب مع عمرها، وهو ما اضطرني للسّير بما يشبه الهرولة للّحاق بها. مررنا بشوارع متداخلة حتّى وصلنا إلى شارع فرعي يفضي إلى حديقة مهجورة اجتاحتها الأحراشُ والأعشابُ الضارّة. حديقة تنبئ عن مكان كان مزدهراً في يوم ما.. الأراجيح والألعاب تآكلتْ من الصّدأ وغابت ألوانها خلف ألوان الحمام والغربان والعصافير والقطط والكلاب التي تآلفت بحيث لا يمكن تصوّر أحدها من دون الآخر.

لاحتْ منها التفاتةٌ وأنا أنظر إلى ساعتي. قلتُ بخجل، أشبهَ بالاعتذار:

ـ اعتدت الوصول إليه قبل الموعد.

ـ لا تقلقي. سينتظرك ولكن سيكون عليك انتظاره طويلاً.. طويلاً جدّاً. ولا تعودين بحاجة، حتّى لهذه السّاعة.

ـ وهل مازلت هناك؟

ـ لم تكن همسة عابرة...

طوال حديثنا، لم تكن بحاجة للكلمات إلاّ لتعزّز الإشارات والإيماءات والتقطيبات والابتسامات وظلال الحزن التي كانت وسيلة تعبير فاعلة في شخصيّتها. ومع هذا فلم أنتبه إلاّ في تلك اللّحظة إلى النّدبة الواضحة في رسغها.. ندبة غطّتها أسوارة مرصّعة بحجر النجمة. خلتها ساعة أوّل وهلة. استغربتُ عدم انتباهي لحجر النجمة.. ذلك الحجر الذي خطف أنظارنا ونحن نتطلّع لواجهات المحال الأسبوع الماضي!

جلسنا على أرجوحتين منفصلتين وبدأنا نتأرجح بصمت، وصرير الأرجوحتين الصّوتُ الوحيد في المكان. وكانت حركتنا متعاكسة:

إلى الأمام.. إلى الخلف.

إلى الخلف.. إلى الأمام.

لاحت أمامي ابتسامة مشمسة. التفتُّ إليها. وجدتُها شاخصةً إلى الأمام: عينان امتلأتا بفيض حياة غَسَلَ بحنوّ سحنة وجهها الذّابلة. تطامن عليها هدوءٌ لم أرَ مثله من قبل وسكينة لا توصف. هجست خلفها شبح ابتسامة تذكر (لم تطفأ).

واصلنا التأرجح بهدوء وصمت.. صمت عميق جدّاً سحب معه ظلال كلمات لم يبح بها بعد، توحّدتْ معه شيئاً فشيئاً حركةُ الأرجوحتين ولم نعد نسمع شيئاً.

بغداد